

العلوم المعرفية وأثرها في النقد النصي في المغرب الأقصى

د. محمد بلقاسم (جامعة تلمسان).

أ. محمد بكاي (جامعة تلمسان).

محمد

يتميز المشهد النقدي في المغرب الأقصى بحضور كثيف وفاعل للسانيات الحديثة مختلف فروعها. وقد أتجهت الدراسات اللسانية المغربية المعاصرة إلى بحث الظواهر الاستعملية والإنجازية (Performative) للغة متجاوزة الجوانب الشكلية والصورية* إلى معاجلة أبعادها التداولية؛ وقد أقبل المغاربة على تتبع هذا الدرس الجديد وفحص ما يُنادي به من عِلَّة معرفية وآليات تحليلية للنص الأدبي.

وقد أوضحت المقاربة التداولية أدبية الخطاب وفيته مُحيطة اللاثام عن أسراره وخصوصيته فزحررت يقين النظريات البنوية والوظيفية، وذلك لضيق مفاهيمها وعُقم حداها وإفراط اختزالها، وكشفت عن أسرار التَّنَعِيم ورمزيَّة الدلائل وتفاعل الملفوظات (Les énoncés) المجازية مع فهم المتلقٍ وتأنيله¹، والاستراتيجيات النصية التي يتلقاها المرسل بغية تركيب النسيج الأدبي.

لقد استثمرت المدارس النقدية الحديثة وخاصة في المغرب الأقصى التَّطورات الحاصلة في دراسة الجملة اللسانية بمستوياتها التركيبية والصوتية والدلالية. فقد تجاوزت الدراسات اللسانية الحديثة، من دي سوسير وبلومفید إلى شومسكي، دراسة "المعنى" في الجملة بسبب عدم إمكانية إخضاعه للدراسة العلمية² الموضوعية كباقي العناصر الشكلية التركيبية للجملة.

نستشفّ من ذلك أن موضع التداولية ليس مستقلاً عن اللسانيات³، أي دراسة المعنى التواصلي أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله؛ فالتداولية "علم جديد للتواصل الإنساني يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال ويعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي"⁴ ومن هنا أتت التداولية باهتمام بارز لدراسة المعنى وهو في محيط القول أو سياق الكلام.

أحدث ظهور التداولية تغييرًا كبيرًا في ميدان النقد الأدبي؛ ذلك أن التداولية تدعى إلى تغيير النظرة إلى النصوص؛ أي تحويل نظرية البنية التي ترى النص بنية مبتورة عن الفعل الملفوظي⁵، إلى نظرتها التي تدعى إلى دراسة النص في علاقته مع النشاط الملفوظي (الكلام).

ويمكن حصر العناصر التي يهتم بها المنظرون للتداولية في: المرسل وقصده، والمتلقي، والرسالة، والسياق، ثم أفعال اللغة⁶. ففي تحليل تداولي لخطاب أدبي وجب على القارئ الناقد العكوف على "تأويل العناصر التي ترد في خطاب ما، ومن الضروري أن نعرف من هو المتكلم، ومن هو المستمع، وزمان ومكان إنتاج الخطاب"⁷؛ أي الإحاطة بظروف إنتاج الخطاب الأدبي والتعرف على سياق تلقيه والعكوف على دراسة معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكونيه الثقافي ومن يُشارك في الحديث الخطابي، والمعرفة المشتركة بين المتحاطفين والواقع الخارجي ومن بينها الظروف المكانية وال زمنية، والعلاقات الاجتماعية بين الأطراف.

وهذا الشراء المعرفي للسانيات التداولية جعل من بعض نقاد المغرب الأقصى ومفكريه البارزين يتبنّون هذه المقاربة في قرائتهم للخطابات الأدبية والإعلامية والسياسية وغيرها. وقد استند بعضهم⁸ إلى العلوم المعرفية التي ترفد التداولية من مشاركتها، وتستعير تقنياتها التحليلية ونتائجها المقدمة في التخطيط الذهني وآليات الاستقبال والفهم والتأنيل للخطاب اليومي أو التخييلي. من هنا نسعى في هذا المقال إلى تقصي البعد المعرفي والتداولي في النقد النصي في المغرب الأقصى متطرّفين إلى بعض النماذج التي استقبلت المعطيات المعرفية والتداولية التي يمكن الاعتماد عليها كتقنيات حدودية بتحليل النصوص الأدبية.

أوليات حول ماهية العلوم المعرفية:

تبحث الترعة المعرفية⁹ في طبيعة المعرفة وما تتألف، وتندرج في إطار المقاربات الجديدة لفهم ميكانيزمات الفكر ووظائف المعرفة، ذلك أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد اهتماماً كبيراً ومترادفاً بالعمليات المعرفية¹⁰، كما شكلت مصطلحات مثل الإدراك الحسي والتذكرة والاستدلال وحل المشكلات.

تبحث العلوم المعرفية عن تفسيرات لقدرة العقل الإنساني ونشاط الدماغ واستعماله¹¹، كما أنها تبحث كذلك عن وصف منهجي للسيرورات العقلية العاملة على مستوى الأنظمة الحية وكذلك دراسة الآليات العصبية المنظمة والفاعلة على مستوى الدماغ والتعبير عن هذه الأوصاف المحددة بصيغ البنية والوظيفة والمضمون.

وتقيم التداولية روابط بين اللغة والإدراك عن طريق العلوم المعرفية، لدراسة الآليات المعرفية (المركرية) التي هي أصل معالجة المفهومات وفهمها. إذاً تبحث كل من العلوم المعرفية والممارسة التداولية عن إجابة لتساؤلات من قبيل: كيف أنشأنا قادرّون على معرفة ما نعرف؟ وما هي البنية الإدراكية التي يجعل المعرف متداللة بيننا؟ وما هي حدود وقدرات المعرفة وميكانيزمات العملية الإدراكية؟ وكيف يشغل الذهن؟ نحو كيف يستقبل ويرسل؟ وكيف يُرتب؟ وكيف يستنتاج؟¹²

الحقول المعرفية التي يستند إليها النقد النصي التداولي:

تنقسم العلوم المعرفية إلى مجموعات رئيسية¹³؛ لكننا قمنا بعرض مفاهيم أبرز الحقول المعرفية المؤسسة للتداولية: وهي الذكاء الاصطناعي وعلم النفس المعرفي واللسانيات المعرفية والعلوم العصبية.

1-4 - الذكاء الاصطناعي (L'intelligence artificielle): هو قدرة الآلة على تنفيذ عمليات تعتبر ذكية كالتعرف على

الأشكال، والتعلم، وأخذ القرار^{١٤}. هناك مدرستان: إحداهما تعتبره علمًا معرفيا هدفه استيعاب واستنساخ ميكانيزمات اكتساب المعرفة والفهم، والأخرى ترى أنه فرع من المعلومات يستثمر إمكانيات الواقع لابتکار أحداث مصطنعة.

2-4- علم النفس المعرفي (psychologie cognitive)

cognitive: هو فرع من علم النفس الذي يدرس المعرفة ويعالج الميكانيزمات العقلية وبالتالي أنشطة الدماغ. إنه يرتكز على ملاحظة سلوك الأفراد في محاولة للكشف عن استعمال الصور العقلية وتعيين العوامل التي تؤثر في هذا الاستعمال. منذ عدة سنوات شكلت مقاربة معالجة المعلومات الأفق الكبير لعلم النفس المعرفي التي تعتبر التطور العقلي متكوناً من تعاقب عدة مراحل^{١٥}. يقول تييرجييان: "يعتبر علم النفس المعرفي الفرد كجهاز لمعالجة المعلومات، حيث يحول المعلومات من طبيعة فيزيائية إلى معلومات من طبيعة عقلية أو مبنية"^{١٦}.

3-4- اللسانيات المعرفية (linguistique cognitive)

cognitive: إذا كان اليوم معظم علماء النفس يعتقدون أن الفكر واللغة ينسجان علاقات وثيقة، فيجب على اللسانيات المعرفية أن تتحقق بحق العلوم المعرفية؛ فهي تشتراك اليوم مع العلوم المعرفية في عدة نقاط ميدانية متنوعة؛ كعلم النفس اللساني، وعلم الدلالة، واللسانيات العصبية، والفلسفة التحليلية للكلام. وهذا اللقاء مع اللسانيات يمر عبر قنوات:

- مشاكل الترجمة الأوتوماتيكية للنصوص إلى لغات أخرى من طرف برامج الذكاء الاصطناعي، استلزمت تدخلها ومساعدتها.

- لا يمكن تصور انبعاث حركة العلوم المعرفية بدون إسهام قواعد العبارات اللغوية في اللسانيات التوليدية (linguistique générative)؛ فنظريات اللغوي الأمريكي نوام شومسكي حول قواعد العبارة في التحوير التوليدي (grammaire générative، كان لها تأثير حاسم في التقارب بين اللسانيات والعلوم المعرفية الأخرى^{١٧}. ذلك أن تكوين وتأليف قواعد العبارة تسعى إلى إلزام البنيات النحوية العميقية والعامضة للكلام؛ فيتم - انتباها من ذلك - بناء الخطابات الخاصة.

4-4 - العلوم العصبية (*Sciences neurologiques*): تُكْوَنُ

العلوم العصبية فسيفساءً من الميادين المتشابكة (البيولوجيا العصبية، والفيزيولوجيا العصبية، وعلم الغدد العصبية، وعلم التشريح العصبي...)¹⁸ التي تدرس الأسس البيولوجية والفيزيولوجية والتشريحية للدماغ حيث عرفت تطوراً كبيراً خلال العشرين سنة الأخيرة.

لقد شهد علم الأعصاب المعرفي نشأته الأولى في الثمانينيات التي اتسمت، مثلاً، بظهور المدرسة الأولى الصيفية لعلم الأعصاب المعرفي في جامعة هارفارد، وتأسيس مجلة علم الأعصاب المعرفي¹⁹ (*Journal of cognitive Neuroscience chez MIT Presse*).

وقد ساهم عاملان اثنان في تطور هذا العلم الجديد؛ ارتبط العامل الأول بالتقدم الهائل الذي عرفته المعلوماتية؛ حيث تمكّن العديد من الباحثين من التوفّر على حواسيب في غاية الدقة مكتّبهم من تقليد ومحاكاة الأنشطة المعرفية بواسطة شبكة من الخلايا العصبية الاصطناعية.²⁰ كما ساهمت هذه الأنظمة ذات التقنيات العالية، في تطور أدوات المصورة الدماغية²¹ (*imagerie cérébrale*).

تأثير العلوم المعرفية في النقد النصي التداولي في المغرب الأقصى:

تفترض الترعة المعرفية أنّ الحياة النفسية مؤلّفة من عدد معين من العمليات المنطقية للمرأبة، والتنظيم والضبط والحساب²² تماماً مثل الحاسوب*. فالذهن تبعاً لذلك، مبني على عدد من التمثيلات الرمزية، يرتّبها وينظمها، ويدبرها ويعالجها وذلك مثل ما يفعل الحاسوب: معالجة المعطيات ثم تنفيذ العمليات.

تحاول العلوم المعرفية تقديم بيانات عن سير نظام الدماغ مبرزة الدور الكبير للتمثيلات، التي يمتلكها الشخص في حالة معينة، والتي على إثرها تحصل المعالجة²³.

إنَّ الشخص كفاعل معرفي (*agent cognitif*) الذي يُعالج، بطريقة آلية تلقائية أو مضبوطة، معلومات رمزية ذات طبيعة مختلفة (لفظية، رقمية، رمزية) يصير قابلاً

لتقدم استدلالات واستنتاجات²⁴، وبلورة خطط عمل مع ما يرافق ذلك من إمكانية تصميمها ومراقبة تنفيذها.

فنظرية الذكاء الاصطناعي نابعة من فلسفة تحريدية رياضية تُراعي قبل كل شيء الآلة "للكشف عن آليات الإنسان البيولوجية واللسانية ليمكن التبيؤ بغير سلوكه أو خلقه".²⁵ وتقديم الفرضيات المعرفية نفسها كمحال خصب لدراسة تطور الذكاء عند الطفل وطرق التعلم؛ فهذه التمثلات تسمح بالانتقال من المستوى الدلالي للغة إلى المستوى البيوكيميائي (أي ما يرتبط بالخلايا العصبية) أو بعبارة أخرى من الذهن إلى الدماغ . وهذا هو بالضبط الموقف المعرفيان (*cognitiviste*) الذي يتحدد بحسب التمثلات الرمزية²⁶.

وقد تم إدخال هذه المفاهيم الجديدة إلى ساحة النقد الأدبي في المغرب الأقصى لتحليل الخطابات التداولية؛ إذ أصبحت من خلال مخططات التخاطب والفهم والتأويل تصاغ القراءات النقدية للنصوص، وقد مثلت هذه العلوم المعرفية التي استساغها النقد التداولي بالمغرب نظريات منوعة منها: نظرية الأطر^{*}، ونظرية المدونات^{**} ونظرية الخطابات^{***} والذكاء الاصطناعي وغيرها²⁷.

بالإضافة إلى المقاربات المنطقية واللسانية والبلاغية، ظهرت مقاربات أخرى للخطاب منها المعرفية التي اقترحت تصورات جديدة لتحليل الخطاب والعملية الحوارية، يقول حسان الباهي: "من هذا المنطلق وجه العديد من الدارسين أبحاثهم إلى مجالات تكم عملية الميدان النفسي والاجتماعي فيما يمكن أن تسميه بعلم النفس المعرفي واللسانيات الاجتماعية التي استمدت أصولها من مباحث مثل اللسانيات والمنطق".²⁸

وأبرز الوجوه المغربية في هذا الشأن: محمد مفتاح²⁹ وعبد اللطيف محفوظ³⁰ وعلى آيت أوشان ومحمد الماكري ومحمد سرو، وإسماعيل شكري وطائع الحداوي وغيرهم.

يتحددت محمد مفتاح عن أهمية العلوم المعرفية ومنها الذكاء الاصطناعي في تحليل النصوص في قوله: "تركز هذه النظريات المعرفية على بنيات ثابتة معطاة، وتنال، وكلية،

واختزان، وسحب تجعلنا نتساءل: ألا يمكن للمتلقي أن يتعرف على الإطار إلا إذا كان على علم سابق به". فإذا لم يكن له علم، فما العمل إذن؟ لهذا ننظر إلى إجابات اللسانيات التحسيبية وخصوصاً جانبها التواصلي (Computing communication function)³¹.

فنظريّة الإطار مثلاً -كما يرى مفتاح³²- نموذج ذهني يقصد به المعارف والمحفوظات التي تعلّمها المبدع وخرّكما في ذاكرته، وسحب منها ما يحتاج إليه.

إذن، من الواضح أنَّ مقاربة معالجة المعلومات التي تنتمي لميدان المعلومات قدّمت خدمة جليلة ومنفعة كبيرة على سبيل فهم الفكر؛ وذلك ما كان ممكناً لولا حصول ثورة في طريقة دراسة الفكر والنقد. فعبد اللطيف محفوظ جاء منهجهية تداولية في تحليل النص سيميائيًا تقتضي "سيرورة ذكاء علمي يقوم على آليات الاستنتاج المنطقي، الواجب تطبيقها على النص الإظهاري الذي يشكل المُعطى المادي الوحيد (أو موضوع التلقّي الفعلي)".³³

إنما قفزة إبستيمولوجية بلا شكٍ، وتصورُها يبدو مرتبطة بمحاولات تعقيد الاستنباط الرياضي لنشاط الدماغ. لقد بات ينظر لهذا الأخير وكأنه آلة عصبية (machine) خاضعة لقواعد منطقية. علم التحكم (neuronale cybernétique) المسوب لويينر Wiener وآلية تورينيك Turing ومنطق بول Boole كلها عناصر أساسية كانت وراء توجيه الاهتمام بالآلية ذكية طبيعياً: الدماغ وصنع آلية ذكية اصطناعياً: الحاسوب. وقد شُكِّل التقارب والتداخل بين هاتين الآلتين ميداناً خاصاً لعميق الأبحاث في هذا المجال³⁴؛ حيث يعتبر الدماغ على غرار الحاسوب، جهازاً معقداً لمعالجة المعلومات ويشتغل بفضل أنظمة للتخزين: الذاكرة وعمليات التحليل المنطقي مثل البحث والتحقق من المقولات.

غير أن هذه العلوم المعرفية لا تؤدي إلى نتائج سهلة المeras في قراءة النص، يقول مفتاح في هذا الشأن: "مقاربة الذكاء الاصطناعي تؤدي إلى عدة إشكالات...إذا كان المبدع ينطلق من نواة معينة يقوم بتشعيتها إلى عُقد أو إلى مفصلات، يحمد بعضها ويشعب بعضاً آخر

منها، وإذا كان محلل يتبع ما قام به المبدع محاولاً تبيان ما فعله من تحفظات وكشفاً عن آلياتها التي تمت بها، لأن سؤالاً قد يُطرح: إذا كانت تنمية النواة بهذا الشكل، فلماذا يختلف تشعيّب "المبدع" عن "المبدع" وتأويل محلل عن محلل آخر؟³⁵ أو ليس من المتعيّن أن ينحصّع "المبدع" والمحلل لقانون عام، وأن يسيراً في طريق واحد كأهلهما حواسيب مما يجعل للبشرية إبداعاً آلياً وفهمها آلياً، مما يوحد الفهم ويوفّر الجهد وينبذ العلاقات؟!؟".

استراتيجية المؤول وبعدها المعرفي - التداولي في تحليل النص الأدبي:

تتميز استراتيجية المؤول باعتمادها أساساً على نظرية المعرفة المشتركة؛ حيث تؤدي إلى التراجع من النتائج إلى المقدمات في تسلسل لا ينتهي.

وتقترض هذه الاستراتيجية - حسب اللسانى دينيت (Dennett) - أن الأفراد الذين تواجههم عقلانيون؛ أي يمكن "أن نؤول سلوكهم الذي توقعه إلى حد ما، اعتماداً على الاعتقادات والرغبات والمقاصد التي ننسبها إليهم بلاحظة سلوكهم السابق"³⁶؛ أي أنها تنسّب حالات ذهنية إلى الآخرين حين تتفاعل معهم.

وتعالج البحوث المؤلفة في علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي هذا المفهوم وتعرضه، مثلما فعل "منسكي" وغيره في تعريف هذا المفهوم؛ "حيث يرى المرء اختلافاً في المجزئيات واتفاقاً في الجوهر، فهو تنظيم للمعرفة ضمن مواضيع مثالية (Prototypes) وأحداث قالبية (Stereotypes) ملائمة لأوضاع خاصة. ومعنى هذا أنَّ الذاكرة الإنسانية تحتوي على أنواع من المعارف المنظمة في شكل بنيات، وحينما يواجه الإنسان سلوكاً أو حدثاً أو يريد أن يقوم به أو يفعله فإنه يستمد من مخزون ذاكرته أحد أجزاء البنية لتأويل سلوكاً ما وقع أو لإنجاز ما يريد".³⁷

وعلى المتلقى أن يمتلك كفاءات تداولية تمكنه من فهم مقاصد مرسله التي يُريد إبلاغها له؛ فمن المؤكّد أن الكلمات الأساسية التي تعتمد عليها في تفكيرنا أكبر الكلمات حظاً من هذه الخاصية.

وربما كانت كفاءة القراءة تعتمد – في الحال الأول – على حُسن إدراك ما تصنعه هذه الكلمات، فليس لدينا افتراضات محددة قبلية نعمل من خلالها. إننا نتعامل مع افتراضات متتجددة أو اعتماد متبادل بين معانٍ نسميتها لأهميتها باسم الكلمات المفاتيح³⁸.

ففي كل تأويل ثمة اختيار "استراتيجية المؤول"، وثمة موقف ضمبي من النص يتحذه المؤول، ولذلك ينبغي أن لا يُنظر إلى المعنى المباشر للنصوص بقدر ما ننظر إلى المنطق الخفي الذي يقف وراء التأويلات ونكشف عن "منطق ما لم ينطق به" المتأولون³⁹.

يشرح مفتاح استراتيجيات المؤول؛ الذي يستضيف النص ويعقد معه صلات حميمة ليتعاونا معاً على إنجاز مهمة الفهم والتأويل والنقد، ومعنى هذا أن المتلقي لا يذهب إلى عالم النص، وهو عبارة عن صحفة بيضاء، وإنما تكون له معلومات مختزنة في ذاكرته تسمح له بالتعيم اعتماداً على مبدأ النظير، كما تسمح له بإعادة الرأي في قياسه وتصحيح بعض أجزاءه، كما أن النص بخصائصه الظاهرة هو الذي يتيح للمتلقي القيام بعمليات المقايسة والتصنيف والتماس الخصائص النوعية⁴⁰.

يلجأ الحال إلى استراتيجيات التأويل نتيجة لطبيعة النص المفترض القابل لأن يمنع تأويلات عديدة، ولذلك حاول مفتاح إعطاءه تأويلاً، لأن مثل هذا التأويل الراجح أو "النهائي" يستلزم وضع فرض استكشافي يتحقق بنصوص الشاعر السابقة أو اللاحقة، وبإدراك عميق لمقتضيات الأحوال⁴¹.

نظريّة الإطار (Aram) ضمن استراتيجيات المؤول:

تنتهي نظرية الأطر (Arams) إلى حظيرة علم النفس المعرفي المعاصر ومنها: المدونات (Scripts) والخطاطات (Shemata) والسيناريوهات (Sénarios)، ومعنى هذه المفاهيم "أن الكاتب أو المتلقي يعتمد على كتابته أو تلقائه على معرفة سابقة مختزنة في الذاكرة، يُثير منها عند الضرورة بعض العناصر لغيرها عمما يصادفه أو يفك لها شفرة ما يقرؤه". كما أن تلك المعرفة الخلفية وما تولده من أفق الانتظار هي

التي تساعده على بناء الأطر إلهاقاً للنظر بالنظير، وإذا ما استعصى ذلك الإلهاق، فإن القارئ يخلق إطاراً جديداً في نطاق مفاهيم عمل مفهومية جديدة⁴².

يُعرف مفتاح الإطار بأنه "تنظيم ضمن مواضيع مثالية وأحداث قالبية ملائمة لأوضاع خاصة"، ويعني بهذا الكلام أن الذاكرة الإنسانية تحتوي على أنواع من المعارف المنظمة في شكل بنيات⁴³. ويضرب مثلاً توضيحاً لذلك:

المدرسة: فعندما تُذكَر تبادر إلى الأذهان أقسام المدرسة والمعلم والتلاميذ والمديرون...، وعندما يُذكَر المستشفى: يتداعى إلى الذهن الطبيب والممرض والمريض والدواء..

ويمثل مفتاح لنظرية الإطار المعرفية في ميدان تحليل الخطاب؛ فحينما تُذكَر القصيدة المدحية التمودجية تبادر إلى الأذهان الخطاطة التي ذكرها ابن قيبة أو ما يقرب منها، وحينما تذكر قصيدة الاستفار إلى الجهاد يحصل في ذهن القارئ المتّمس الشاعر والمدوح، والتذكير بما وقع للأندلس من مآسٍ شاملة للطبيعة، وللإنسان وللدين، والتنبيه إلى ما فعله المسيحيون وما يتّظرون من عِقاب، ثم دعوة الشاعر المدوح إلى جمع العدد والعدة لإعزاز الإسلام وإذلال الكفر، وقد ينهي الشاعر قصيده بالثناء على نفسه وتنبيه المدوح إلى قيمة شعره⁴⁴.

وبذلك فقد وظّف مفهوم الإطار في الذكاء الاصطناعي لفهم اللغة ومعاجلتها لما تبين من قصور نظرية الشبكة الدلالية ونظرية منطق المحمولات. وقد حلّ مفتاح نظرية الأطر إلى مكونات وأهمها: العقد والروابط والشغالون، فالمستوى الأعلى أو العقدة العليا تتولد عنها عقد صغرى لها نهايات أو فضاءات فارغة (S10t)، ويمكن أن تملأ هذه الفضاءات ببعض البيانات أو التعبيرات تُدعى المائنة (Filler)， وينتشر عن هذه الأخيرة عقد حديدة، يقول مفتاح: "إن الإطار (العقد العليا) قد يتشعب إلى أطر فرعية (عقد فرعية) بعضها منجب وبعضها عقيم"⁴⁵.

الأمثلة التوضيحية لنظرية الإطار:

قد يجد الإنسان إطاراً فرعياً ويريد أن يربطه بإطار عام، ولكن الإطار الفرعى هو "كرسي"؟ فالكرسي ينتمي إلى جنس أثاث المنزل؛ لأنه يحتوى على مقومات ما يجمعه بالأثاث: فإذا ما بحثنا عن معلومات في الكرسي ولم نجدها في إطاره، فإننا نبحث عنها في إطار الأثاث.. إن الكرسي يرث خصائص وصفات موجودة في إطار الأثاث، كما أنه يجب أن تعزى كل الصفات والخصائص إلى الكرسي الذي من شأنه أن يمتلكها إلى أن يثبت العكس، وعملية العزو هذه هي ما يدعى الاستدلال بالغياب (*Inference by Default*)، كما أن آلية أخرى تقوم بدور بین في الربط بين الأطر (العقد) وتنشيطها حينما تدعو الحاجة، وهذه الآلية هي الشغالون (*Demons*) وتنطلق عملية الربط والتنشيط بـ "إذا ما كان كذا فإنه يكون كذا أو يحتاج إلى كذا أو يُضاف كذا أو ينقل كذا..."⁴⁶.

والمثال الذي ضربه مفتاح حول نظرية الأطر يوضح علاقة الإطار العام المجرد (*Type*) بالإطار المتحقق أو الواقعي (*Token*)، ويأتي مفتاح بمثال آخر⁴⁷:

- | | | |
|------|---|----------------------------------|
| إطار | → | دار (جنس(قيمة (بناء))). |
| فضاء | → | (مطبخ (قيمة (معاصر))). |
| فضاء | → | (بيت النوم (قيمة (معاصر))). |
| فضاء | → | (بيت الاستقبال (قيمة (تقليدي))). |

يسنتنّج أن "الإطار العام الأم" هو الدار وتحته تأتي ثلاثة فضاءات ملئت بعناصر مقومة:

مطبخ + بيت النوم + بيت الاستقبال.

ويمكن أن تشعب هذه الأطر فيضاف إليها بعض الشغالين كقولنا: "إذا كانت الدار مغربية فإنما تحتوي على بيت استقبال تقليدي، وإذا كانت الأسرة كبيرة فقد يحتاج إلى توسيع الدار، والإطار الممثل به نموذج (*Type*) يرث جميع خصائص وصفات الدار النموذجية عن طريق الاستدلال بالغياب حتى يثبت العكس التحرري والتقصي".⁴⁸

تطبيق نظرية الإطار أو المعرفة الخلفية على شعر ابن زيدون:

يرى مفتاح أن شعر ابن زيدون لا يفهم إلا إذا وضع في إطار عام، وإطار خاص؛ فالإطار العام هو الغزل العربي، وأما الإطار الخاص فهو الغزل الأندلسي في عصر ملوك الطوائف.

أ- الإطار العام: وقد تحدثت عنه الكتب التراثية التي تناولت الحب، ومكونات هذا الإطار هي⁴⁹:

المُحب: وصفاته هي: الحزن الدائم، والبكاء، والوفاء، والتشوق، والطاعة العمياء، والعشق الدائم والتذلل والتحمل، وعدم اليأس والستقم والسهر والهم والغم والأنين.

المُحِبُوب: وصفاته: التمنُّ والتجنّي والهجران.

المُساعِدات: الرسائل والرسول واللقيا والنظر..

المعوقات: العُذَال، والواشون، والأعداء والرقباء..

ب- الإطار الخاص: وهو يدور حول ماهية الحب وأغراضه ووسائل الاتصال وتعزيزه وموانعه، وهو ثابت، أمّا الذي يتغير فيه المصاحبات التي يحدّها لدى هذا الشاعر أو ذاك كأن يحب شاعر ما محوبة سراء وآخر يريدها شقراء...

يفهم من هذا التوظيف لنظرية الأطر المعرفية على شعر ابن زيدون إقرار من محمد مفتاح بدور الذاكرة في إنتاج الخطاب، لكنه لا ينفي أن الأخذ الحرفي لهذه النظريات المعرفية وإسقاطها على نصوص وخطابات قد تتحقق مشكلات، فهذا الإسقاط قد " يجعل العمل الأدبي يشقق الكلام، واللغة تتناصل من اللغة.. وبناء على هذا، فإن الدعوة التي تقول بالاكتفاء لدراسة بعض الشعراء وخصوصاً الحسينيين منهم تصبح وحية.. المتبنّي يجزئ عن دراسة ابن دراج والبحترى يعني عن ابن زيدون.. إن الشعر الأندلسي، إذن هو تحصيل حاصل من الشعر المشرقي"⁵⁰.

يهدف النقاد من وراء استراتيجيات المؤرول إلى ملء أنواع الفراغ الموجود في النص، أو لربط العلاقة بين بنيته، ويستعمل المخلل في ذلك مفاهيم إجرائية متعددة منها:

الاستدلال بالغياب أو (الاستصحاب)، والاستدلال العادي، والفرض الاستكشافي، فحينما يسمع المرء كلمة "إنسان" فإنه يفترض أنه له رحيلين وعيدين ويدين ورأسا، وكل ما يتكون منه الإنسان من جوارح ومؤهلات إلى أن يثبت عكس ما يفترضه⁵¹.

ويقول مفتاح في موضع آخر ميررا سبب اللجوء إلى استراتيجيات التأويل عند القارئ في ملئه الفراغات والبياضات النصية أنَّ "المبدع لا يستطيع أن يُصرّح ببعض الألفاظ أو بعض التعبير، وقد لا يرغب في ذلك غضًّا من شأنها، ونجد هذا في بعض الأشعار القديمة أو الحديثة ذات التزعة السياسية أو الدينية".⁵²

أي بيت التناص مؤشرات وأيقونات غير لغوية، وحيثند فإن المخلل يخرج من السيميا اللغوية إلى "السيميويطيقا"؛ فقد ينوب عن التعبير اللغوي أيقون (قف)، أو رجلاً مقطوع الرأس أو واقفاً على رجل واحدة، أو كرسياً ممزخرفاً... أو أي شيء آخر...

نستشف من خلال عرضنا لأهم مظاهر تأثير العلوم المعرفية والتداوile في النقد النصي في المغرب الأقصى أن التداوile هناك أحدثت تغييراً كبيراً في ميدان النقد الأدبي؛ حيث تدعو هذه المقاربة إلى تغيير النظرة التحليلية البالية إلى النصوص؛ أي تحويل نظرية البنية التي ترى النص بنية مبتورة عن الفعل الملمفوري، إلى نظرها التي تدعو إلى دراسة النص في علاقته مع النشاط الملمفوري وسياقاته وتبحث بشجاعة وتميز وبالآليات تحليلية جديدة بالكامل عن ميكانيزمات الفهم والتأنويل للنص الأدبي.

الهوامش والإحالات :

- * - تُعدُّ الصُّورِيَّة (*Le formalisme*) مهاداً ومرحلةً أولى لظهور التداولية في المغرب الأقصى؛ حيث مثلت مرجعاً أساسياً للأبحاث والدراسات العلمية المتميزة بالدقة والعلمية. يُنظر: حسان الباهي، "اللغة والمنطق: بحث في المفارقات"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، لبنان، ودار الأمان للنشر، الرباط، المغرب، ط١، 2000، ص: 11.
- 1 - يُنظر: محمد مفتاح، "تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، و بيروت، لبنان، ط٣، 1992، ص: 168.
- 2 - Voir: Jacques MOESCHLER & Antoine AUCHLIN, *Introduction à la linguistique contemporaine*, Armand colin, Paris, 2000, pp: 18-20.
- 3 - لقد كان الميل في الستينيات نحو تعريف التداولية كقمامدة اللسانيات وتحصر مهمتها في حل كل المشاكل والقضايا الهامشية التي ترحب اللسانيات في معالجتها.
- 4 - مسعود صحراوي، "التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي" ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، 2005، ص: 17.
- 5 - Voir: Jacques MOESCHLER & Antoine AUCHLIN, *Introduction à la linguistique contemporaine*, p. 20.
- 6 - يُنظر: نعمان بوقره، "التصور التداولي للخطاب اللساني" ، مجلة الرافد، الإمارات العربية المتحدة، ينایر، 2006، ص: 83.
- 7 - محمد خطابي، "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب" ، بيروت، المركز الثقافي، ط١، 1991، ص: 297.
- 8 - من أمثال محمد خطابي، محمد الماكري، محمد مفتاح، إدريس بلطليح وغيرهم.
- 9 - ينحدر مصطلح *cognitif* من الكلمة اللاتينية *cognosco*، ويفيد في معناه الواسع كل ما له علاقة بالمعرفة *connaissance*: من الإدراك إلى الذكاء دون إغفال اللغة والذاكرة والتعلم. يُنظر: محمد سرو، "الترعة المعرفانية *Cognitivisme*"، مجلة فكر ونقد، ع 97.

- 10 - يُنظر: فان دايك، "النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، ترجمة: عبد القادر قنبي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط١، 2000، ص ص: 214 و 215.
- 11 - Look: David Lee, "Cognitive Linguistics: an introduction", Oxford University Press 2001, pp : 2 & 3.
- 12 - يُنظر: عبد السلام عشير، "إشكالات التواصل والمحاجج: مقاربة تداولية معرفية"، بحث مقدم لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات التداولية، إشراف: أ. د: محمد الشاد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدى محمد بن عبد الله، ظهر المهاز، المملكة المغربية، 1999 - 2000 ، ص: 25.
- 13 - كل واحدة منها تتضمن برنامجاً اشتغالياً معيناً، ويدرج الاستدلال أو العمليات المعرفية العُليا ضمن اهتمامات الفلسفة وعلم النفس واللسانيات، أما العمليات الحية والإدراكية أو العمليات المعرفية الذِّئْنَ هي من مجموعة أعمال العلوم العصبية والفيزياء والرياضيات وما ضمن الآفاق الصورية والاشغال التطبيقي على قدرات الآلة والمواد التكنولوجية فهو من اختصاصات الترس المعلموني والذكاء الاصطناعي.
- 14 - Voir: La Vallée I., "La Pensée Artificielle ?", La pensée 282, pp : 31-32.
- 15 - Voir: Fortin C. Rousseau R., "Psychologie Cognitive, Une Approche de Traitement de L'information", Télé Université, Presse de l'Université du Québec, 1992, pp : 3-4.
- 16 - Weinberg A., "Des Sciences du Cerveau aux Sciences de la Pensée : état des lieux", Sciences Humaines, N°17, Mai 1992, p :19.
- 17 - يُنظر: فان دايك، "النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، ترجمة: عبد القادر قنبي، ص: 214.
- 18 - يُنظر: محمد سرو، "التراجمة المعرفافية Cognitivismé"، مجلة فكر ونقد، مجلحة تقافية شهرية، دار النشر المغربية، العدد 97. منتشر على موقع المفكر محمد عابد الجابري في الانترنت: www.aljabriabed.net/fikrwanakd/ العدد 97.
- 19 - Koeing O., "Vocabulaire des Sciences Cognitives", PUF, 1998, p : 6.
- 20 - نتيجة لذلك، شهد ميدان معرفة العلاقات الفيزيائية والكميائية بين الخلايا العصبية انطلاقاً باهراً، كما تمكّن العلماء من تحديد التصرّف الدقيق لمختلف الوظائف المعرفية؛ فنحن نعرف اليوم نسبياً المراكز الدماغية المسؤولة عن البصر والكلام والسمع.

- 21 - يُنظر: محمد سرو، "الترعة المعرفانية Cognitivisme"، مجلة فكر ونقد، العدد 97.
- 22 - يُنظر: سامي أدهم، "تشميم ما بعد الحداثة: الفلسفة الصنعة، الآلة المفكرة، المعلوماتية، الذكاء الاصطناعي"، دار كتابات، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 56.
- * - باللغة العلوم المعرفية في التقرير بين ذاكرة الإنسان وذاكرة الحاسوب، لترجمة في دراسات خاصة الدراسات اللسانية من جهة واللسانيات الحاسوبية من جهة أخرى.
- 23- Voir: Jacques MOESCHLER & Antoine AUCHLIN, *Introduction à la linguistique contemporaine*, p p: 29.
- 24 - يُنظر: سامي أدهم، المرجع السابق، ص ص: 57 و 58.
- 25 - محمد مفتاح، "دينامية النص: تنظير وإنجاز"، المركـ الثقـيـ العـرـيـ، الدـارـ الـبـيـضـاءـ، المغرب، وبيروت، لبنان، ط3، 2006، ص: 37.
- 26 - يُنظر: محمد سرو، "الترعة المعرفانية Cognitivisme"، مجلة "فكر ونقد"، مرجع سابق.
- * - الأطـرـ: هي شبكة من العلاقات يكون مستواها النموذجي الأولي مطابقاً للأحداث ثابتة (Stereotyped) متعلقة بأوضاع نموذجية، وشبكة دنيا هي تحقـقات لتلك الشـبـكـةـ، ويتـعبـيرـ آخرـ، فإنـ الأـطـرـ تتـكونـ منـ عـناـصـرـ ضـرـورـيـةـ (Slot)، وـعـناـصـرـ اـخـتـيـارـيـةـ مـالـةـ (Filler) لتـلكـ العـناـصـرـ الضـرـورـيـةـ المـحـرـدةـ". محمد مفتاح، "دينامية النص"، ص: 26، و يُنظر: "مجهول البيان"، ص: 68.
- ** - المدونات: هي متالية ثابتة من الأحداث النموذجية التي تصف وضعاً، أي تسلیي العلاقات الزمانية والمكانية وانتظامها". محمد مفتاح، "دينامية النص"، ص: 26. و يُنظر: "مجهول البيان"، ص: 70.
- *** - الخططـاتـ: تـشـبـهـ المـدوـنـاتـ إـلـىـ حدـ بـعـيدـ؛ إـذـ كـلـ مـنـهـماـ يـعـنيـ التـابـعـ وـالتـراـبـطـ.
- 27 - يُنظر: عبد الحق بلعابد، "دينامية النص: بين عتبات التنظير وعلامات الإنماز"، في كتاب: "محمد مفتاح: المشروع النقدي المفتوح"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص: 1985. و يُنظر: محمد مفتاح، "النص من القراءة إلى التنظير"، ص: 24.

- 28 - حسان الباхи، "الحوار ومنهجية التفكير النقدي"، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2004، ص: 143.
- 29 - يُنظر: محمد مفتاح، "مشكاة المفاهيم : النقد المعرفي" ، ص ص: 30 و56.
- 30 - يُنظر: عبد اللطيف محفوظ، "سيميائيات التظهير" ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ونشرات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص: 18. و"آليات إنتاج النص الروائي: نحو تصور سيميائي" ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ونشرات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص: 52.
- 31 - "دينامية النص: تنظير وإنجاز" ، ص: 27.
- 32 - يُنظر: "النص من القراءة إلى التنظير" ، ص: 10.
- 33 - عبد اللطيف محفوظ، "سيميائيات التظهير" ، ص: 13.
- 34 - يُنظر: محمد سرو، "الترعة المعرفانية Cognitivisme" ، مجلة فكر ونقد، العدد 97.
- 35 - "النص: من القراءة إلى التنظير" ، ص: 29.
- 36 - المرجع نفسه، ص: 206.
- 37 - يُنظر: محمد مفتاح، "جهول البيان" ، ص: 68.
- 38 - يُنظر: مصطفى ناصف، "اللغة والتفسير والتواصل" ، سلسلة عام المعرفة، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 193، يناير، 1995، ص: 49 و 50.
- 39 - يُنظر: علي حرب، "التأويل والحقيقة: قراءات تأويلية في الثقافة العربية" ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2007، ص: 191.
- 40 - يُنظر: محمد مفتاح، "دينامية النص" ، ص: 42.
- 41 - يُنظر: محمد مفتاح، "النص: من القراءة إلى التنظير" ، ص: 19.
- 42 - "النص: من القراءة إلى التنظير" ، ص: 33، وينظر: "دينامية النص" ، ص: ص: 27 و28.
- 43 - يُنظر: "المرجع نفسه" ، ص: 27.
- 44 - يُنظر: المرجع نفسه، ص: 28.

- 45 - محمد مفتاح، "مجهول البيان"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، 1990، ص: 68 و 69.
- 46 - المرجع نفسه، ص: 69.
- 47 - يُنظر: المرجع نفسه، ص: 69-70.
- 48 - "مجهول البيان"، ص: 70.
- 49 - يُنظر: محمد مفتاح، "النص: من القراءة إلى التناول"، ص: 34.
- 50 - "النص: من القراءة إلى التناول"، ص: 35.
- 51 - يُنظر: المرجع نفسه، ص: 29.
- 52 - "دينامية النص"، ص: 58.

مكتبة البحث:

الكتب العربية والترجمة:

- 1- أدهم، سامي، "تشميل ما بعد الحداثة: الفلسفة الصنعة، الآلة المفكرة، المعلوماتية، الذكاء الاصطناعي"، دار كتابات، بيروت، لبنان، ط١، 1998.
- 2- الباهي، حسان، "الحوار ومنهجية التفكير النقدي"، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2004.
- 3- حرب، علي، "التأويل والحقيقة: قراءات تأويلية في الثقافة العربية"، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2007.
- 4- خطابي، محمد، "لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط٢، 2006.
- 5- دايك، فان، "النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتدابري"، ترجمة: عبد القادر قيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط١، 2000.
- 6- صحاوي، مسعود ، "التدابير عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي "، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، 2005.

- 7 - عشير، عبد السلام، "إشكالات التواصل والمحاجج: مقاربة تداولية معرفية"، بحث مقدم للييل دكتوراه الدولة في اللسانيات التداولية، إشراف: أ. د. محمد الشاد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدى محمد بن عبد الله، ظهر المهراز، المملكة المغربية، 2000-1999.
- 8 - محفوظ، عبد اللطيف، "سيميائيات التظهير"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2009.
- 9 - مجموعة من المؤلفين، "محمد مفتاح: المشروع النقدي المفتوح"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2009.
- 10 - مفتاح، محمد، "تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، و بيروت، لبنان، ط 3، 1992.
- 11 - مفتاح، محمد ، "دينامية النص: تنظير وإنجاز" ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، وبيروت ، لبنان ، ط 3 ، 2006 .
- 12 - مفتاح، محمد، "مجهول البيان" ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 1990 .
- 13 - ناصيف، مصطفى، "اللغة والتفسير والتواصل" ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون والأداب، الكويت، العدد: 193، يناير، 1995.

المقالات:

- 14 - بوقره، نعمان، "التصور التداولي للخطاب اللساني عند ابن خلدون" ، مجلة الرافد، الإمارات العربية المتحدة، يناير، 2006.
- 15 - سرّو، محمد، "الترعة المعرفانية Cognitivism" ، مجلة فكر ونقد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، العدد 97. على موقع المفكر محمد عابد الجابري في الانترنت: www.aljabriabed.net/fikrwanakd

الكتب باللغة الأجنبية:

- 16- David Lee, "Cognitive Linguistics: an introduction", Oxford University Press 2001
- 17- Fortin C. Rousseau R., "Psychologie Cognitive, Une Approche de Traitement de L'information", Télé Université, Presse de l'Université du Québec, 1992

-
- 18- Jacques MOESCHLER & Antoine AUCHLIN, *Introduction à la linguistique contemporaine*, Armand colin, Paris, 2000
- 19- Weinberg A., "Des Sciences du Cerveau aux Sciences de la Pensée : état des lieux", Sciences Humaines, N°17, Mai 1992.